سوريون من أجل الحقيقة والعدالة
Syrians For Truth & Justice

السلّمية فقط ولا شيء سواها

قصة الناجي جلال نوفل

حول المنظّمة:

"سوريون من أجل الحقيقة والعدالة" هي منظمة سورية مستقلة، غير حكومية وغير ربحية. تضمّ العديد من المدافعين والمدافعات عن حقوق الإنسان من السوريين والسوريات على اختلاف مشاربهم وانتماءاتهم، كما تضمّ في فريقها المؤسس أكاديميين من جنسيات أخرى.

تعمل المنظمة من أجل (سوريا) التي يتمتع فيها جميع المواطنين والمواطنات بالكرامة والعدالة وحقوق الإنسان المتساوية.

سوريون من أجل الحقيقة والعدالة

Syrians For Truth & Justice

سوريون من أجل الحقيقة والعدالة
Syrians For Truth & Justice

الفهرس

ملخص تنفيذي 3
لمحة عن حياة "جلال نوفل" ما قبل الاعتقال 4
الاعتقال الأول في حياة جلال نوفل 5
تأملات السجن تثمر توجهاً جديداً 7
الاعتقال الأول لجلال خلال الثورة 9
السلّمية فقط ولا شيء سواها 9
الاعتقال الثاني، نيسان 2012 10
الشبْح كالخبز زادُ الجلاّد للحصول على المعلومات 11
السوريون متساوون فقط في التعذيب أمام الجلاد 12
سجّانون أقل سوءاً وسجّانون هم الأسوء 13
الاعتقال الثالث أثناء الثورة، الاعتقال الأقسى والأكثر رعباً 14
خشب وحديد 15
الشاويش هو من يوزع الموت والحياة 15
سانتمترات الحياة 15
الطعام مقابل الاستحمام 16
الصعق بالكهرباء العالي، أخطر أنواع التعذيب وأكثرها شيوعاً 16
غرفة العزل، غرفة الاحتضار والموت 18
هذيان يؤدي للموت 18
ليس اعترافاً، بل إملاء اعتراف 19
حتى "الموالون للنظام" لا ينجون 19
كنت قريباً من الموت أيضاً ولكنني نجوت 19
الاعتقال الرابع، صدفةٌ "خيرٌ من ألف ميعاد" 20
"صوت زقزقة العصفور لا يفارق حنجرتي" 20
نابض المعتقل طوق نجاته 21

ملخص تنفيذي:

عندما تجلس مع جلال فإن أول ما يثير إعجابك فيه تلك الطاقة الشبابية التي يتمتع بها رجل تجاوز الخمسين من عمره، وعندما تبدأ الإصغاء إلى كلامه سرعان ما تجذبك حماسته الممزوجة بأفكاره النقية. إنه "جلال نوفل" الذي أكمل دراسة الطب البشري واختص كطبيب نفسي بعد أن أمضى ثمان سنوات ونصف في سجون متعددة إبان حكم "حافظ الأسد" للسلطة في سوريا، وهو الناجي من أربعة اعتقالات متكررة لنشاطه خلال الثورة السورية ودفاعه عن مكوناتها السلمية.

بدأ جلال حياته الذهنية بالاطلاع مبكراً على أدبيات الثقافة الشيوعية وما لبث أن كرس أغلب وقته للعمل ضمن أحزابها وكوادرها النشطة، اعتقل في العشرين من عمره على إثر نشاطه مع "حزب العمل الشيوعي" وإيمانه بمنطلقاته ومبادئه الثورية، لكن سنوات سجنه الطويلة أكسبت وعيه الفكري أبعاداً أكثر عمقاً فتوجه نتيجة تأملاته الشخصية وملاحظاته المباشرة لمفرزات الواقع آنذاك للبحث عن وسائل ناجعة للعمل الثوري. آمن بعد "انتفاضة الشعب الأولى" أن العنف لا يمكن له إحداث التغيير، فاطلع على ثقافات وتجارب متعددة رسخت أكثر توجهاته نحو استخدام الوسائل السلمية و "ثقافة اللاعنف" كأدوات للتغيير الآمن.

ومع انطلاقة الثورة في سوريا ونداءاتها الأولى بالحرية والكرامة كان جلال حاضراً بعمله حاملاً معه تلك الأفكار المبتكرة لاستمرار الأشكال السلمية للتعبير عن "انتفاضة الشعب الثانية"، اعتقله "فرع أمن الدولة" مع اللافتة التي كان يرفعها في تظاهرة "عرنوس" السلمية دون أن يقاوم عناصر الأمن أو يهرب منهم لإيمانه أن شعار "لا للطائفية ونعم للديمقراطية" ليس جرماً يُخشى الهروب من عواقبه.

لم ينسى جلال مهنته الانسانية كطبيب فشارك بتأسيس "تنسيقية أطباء دمشق" لمعالجة جرحى المظاهرات السلمية والتي كانت سبباً لاعتقاله الثاني من قبل "فرع المخابرات الجوية" والذي شهد فيه ثلاث حالات وفاة ناتجة عن التعذيب الجسدي المباشر.

ورغم تعرضه شخصياً لتعذيب شديد إلا أن ذلك لم يثنه عن إيمانه بأهمية استمرار أشكال التعبير السلمية المرافقة لثورة الشعب، فعمل بعد اطلاق سراحه بالتنسيق مع "تجمع الشباب السوري الثائر" على إعادة إحياء الحراك المدني السلمي في دمشق من خلال توزيع مكبرات الصوت "السبيكرات" التي تصدح بأغاني الثورة وشعاراتها الأولى على مناطق متعددة من المدينة. وكان ذلك سبب اعتقاله الأطول والأكثر رعباً،حيث رأى الموت أمام عينيه في الفرع "215" التابع للمخابرات العسكرية وهي الجهة التي اعتقلته والتي شهد فيها على حوادث تعذيب وقتل عديدة إضافة لمعاينته المآسي التي يتعرض لها مجمل المعتقلين فيه.

خرج جلال من أكثر الأفرع الأمنية هشاشة وسوءاً سالماً بجسده ليعود بعد شهر معتقلاً للمرة الرابعة لدى "فرع أمن الدولة" ولكن "صدفة" هذه المرة. بعدها قرر مغادرة البلاد ليتوجه إلى إحدى دول اللجوء لكن روحه أبت الابتعاد عن واقع السوريين وآلامهم فعاد إلى تركيا -وتحديداً أكثر مدنها تواجداً للسوريين- ليكمل مسيرته كطبيب للصحة النفسية.

لمحة عن حياة "جلال نوفل" ما قبل الاعتقال

يبدأ جلال التعريف عن نفسه بالقول أنه"ابن مخيم اليرموك" وحياته التي كانت تعجّ آنذاك بالسياسة والكفاح ضد السلطة بأطيافه المتنوعة الفلسطينية والسورية، ولد فيه عام 1963 وعاش جلّ طفولته وريعان شبابه داخل المخيم عدا بعض العطل الصيفية التي كان يقضيها في إحدى قرى محافظة "السويداء" التي ينحدر منها والديه. كان للأب أثر كبير في تكوين شخصية جلال الثائرة والمتمردة على الأنماط السائدة. فقد عُرف والده -وكان رئيس نقابةعمال السياحة في دمشق آنذاك- بشغفه لمناصرة قضايا العدالة وجسارته في الدفاع عن حقوق الفئات الأكثر تهميشاً، حيث كان صدامياً وحاداً إذا ما أُسيء لطبقة العمّال وحقوقهم. يذكر جلال حادثة أثارت إعجابه بوالده عندما تشاجر مع مدير "فندق الميريديان السياحي" وضربه لأنه أساء معاملة أحد العاملين فيه، كما يتذكر عن والده أكثر الحوادث أثراً فيه وهي التي سبقت وفاة الأب بأيام عندما جاءه أحد الأصدقاء ومعه بعض الأوراق الرسمية طالباً إليه توقيعها، يصف جلال هنا كيف تبدلت سرائر والده وتغيرت ملامح وجهه الشاحبة، وسأله بعد أن خرج الضيف عن سرّ تلك الراحة البادية عليه فأجابه الأب حينها بأنه يستطيع بعد اليوم أن يموت مرتاح البال فقد حصل أحد العمال أخيراً على حقه وكسب دعوة قضائية كان قد رفعها على ربّ عمله بعد تسريحه تعسفياً من العمل وقد قررت المحكمة تكليف ربّ العمل صرف مستحقات العامل إضافة إلى مصاريف الدعوة. وبالفعل توفي والده بعد أسبوعين إثر مرض عضال تاركاً له مكتبة ضخمة تعرف جلال من خلالها إلى الماركسية ومنشورات الحزب الشيوعي ونضالاته، كذلك الانشقاقات التي حدثت فيه وقضايا الأحزاب السياسية الأخرى، وهو ما شكّل لدى جلال اللّبنة الأولى لتكوين حياته الفكرية ونشاطه الذهني.

أمّا والدة جلال فقد أخذ عنها المثابرة والحيوية الدائمة بعد أن لاحظ على مدى سنواته الأولى إصرارها على تغيير واقعها الشخصي، فقد كانت الأم لا تجيد القراءة والكتابة لكن عشقها للعلم دفعها لمحو أميتها والاهتمام بالجوانب الأدبية، يقول جلال أنه تعرف إلى روايات "فيكتور هوغو" وأحب قراءة الكتب الأدبية بفضل والدته التي كانت تروي له ولأخيه في صغرهما تلك القصص الممتعة بأسلوب رائع بعد انتهائها من قراءتها.

اكتسب جلال نوفل وعيه الحزبي والسياسي بداية من خلال أسرته والنقاشات المستمرة مع أصدقائه في المدرسة التي كان يرتادها في مخيم اليرموك، إضافة إلى اختلاطه ومجالسته لبعض الطلبة الجامعيين والشباب المتحمسين للتغيير والذين يكبرونه سنّاً. لكن هذا الوعي تبلور أكثر بعد أن التحق في صفوف حزب "اتحاد الشباب الديمقراطي" عام 1979 وقد كان في السادسة عشر من عمره حينها. كانت تلك المرحلة خِصبةً - كما يرى جلال - خاصة من ناحية الحراك السياسي والانشقاقات التي حصلت في الحزب الشيوعي السوري حينذاك، **يقول جلال:**

كنت ضمن هذا الجو تماماً وقد ساعدني ذلك على التعمّق أكثر في أيديولوجيات الأحزاب القائمة في سوريا في ذلك الوقت، كانت هنالك بوادر انتفاضة ما وبتنا نسمع بأنشطة متنوعة مثل "بيان المثقفين" وغيرها. وبالفعل بدأت الملامح الأولى للتمرد في سوريا عندما كنتُ أدرس لشهادة الثانوية العامة، حينها بدأت أتابع الكثير من بيانات التجّمعات السياسية وألتقي بالعديد من الأشخاص من حزب البعث الديمقراطي وحزب العمال الثوري ورابطة العمل الشيوعي، قرأت في أدبياتهم التي كانت آنذاك تشبهني من جهة وتلبّي إلى حد كبير "حسّ المعارضة" لدي من جهة أخرى. ولاحقاً انتسبتُ إلى "حزب العمل الشيوعي" بعد اختلاف في وجهات النظر مع أصدقائي القدامى، وقد كنتُ واعياً جداً لعواقب هذا الانتساب ومدركاً أنّه قد يكون سبباً لتعرضي للاعتقال.

يضيف جلال بخصوص ما حدث في فترة الثمانينات:

"كانت انتفاضة شعبية ضد الظلم وبداية للتحرر من حكم الاستبداد، لكن أطرافاً أرادت لها الموت قبل الولادة ونجحت في ذلك. تلك حقبة الثمانينيات في سوريا حيث طيّف كلٌّ من السلطة وحركة الإخوان المسلمين انتفاضتها الأولى وحوّلوها إلى نزاع بينهما مخلّفين وراءهما دماراً شاملاً للحجر والبشر، واليوم هي ثورة شعبية واسعة يُراد لها ذات المصير. كنت حاضراً آنذاك بروحي المتمردة ونشاطي الثوري ضد كل أنواع الجور وأنماط القهر السائدة كما أنا اليوم، كنت شاهداً على الموت خارج معتقلات النظام السوري وداخلها في زمنين متباينين شكلاً متطابقين مضموناً، وما بين زنازين الأسد "الأب" والأسد "الابن" عايشت ظروف اعتقال عنيفة وأطياف تعذيب متشابهة من حيث النوع ومختلفة من حيث الشدّة وسعة الانتشار."

ويستطرد قائلاً:

في شباط من العام 1982 وبعد تدمير مدينة حماة فتحت قوات النظام السوري الطريق إلى المدينة، اتجهتُ إليها في اليوم التالي على الفور. كان الدمار فظيعاً وكانت بقع الدم الناتجة عن الإعدامات الميدانية تصبغ أرضها وجدرانها، لم تكن مدينة- كانت عبارة عن ركام لا غير. لقد أصبحت مدينة "كئيبة" وهو ما دفعني إلى عدم العودة إليها حتى العام 2013. حسمتُ أموري يومها وقلتُ في خلدي يجب إسقاط هذه السلطة الجائرة، خاصة بعد أن فهمت مرادها من كل ذلك الدمار ورسالتها لجميع السوريين والتي كان مفادها **"من يقف في وجهنا سوف يلاقي ذات المصير"**.

الاعتقال الأول في حياة جلال نوفل

بدأتُ في العام 1983 بنقل بريد "حزب العمل الشيوعي" إلى المحافظات الأخرى مثل حلب واللاذقية وغيرها بوسائل النقل العامّة، وفي إحدى المرات كنت أنقل بريداً مستعجلاً من دمشق إلى حلب حين اكتشف مساعد سائق الحافلة التي كنت فيها بين أغراضي وجود "الراية الحمراء" (وهي اسم جريدة حزب العمل الشيوعي) وعند محاولتي الهروب منه أمسك بي بمساعدة بعض المتواجدين وقاموا بتسليمي إلى فرع الأمن السياسي في دمشق، وكان ذلك في شهر تمّوز من العام 1983 وقد كان يسمّى هذا الفرع حينها "فرع المدينة" أو "فرع الميسات" الكائن بجانب مشفى أمّية.

كنت في العشرين من عمري، طالباً في السنة الثانية أدرس الطب البشري في جامعة دمشق. كان تصور عناصر الأمن حين تم احتجازي أنهم حازوا كنزاً ثميناً، فلا بد لناقل البريد أن يملك معلومات كثيرة عن الحزب وعن الأشخاص ذات الصلة به، لم تختلف عليّ كثيراً أساليب التعذيب والضغوط التي مورست حينها عن تلك الأساليب التي شاهدتها لاحقاً في سجون "بشار الأسد" (كالضرب بالخيزرانات، واستخدام "الدولاب" أو الوقوف لساعات طويلة على قدم واحدة كعقوبة وغيرها) ولم تختلف طرق الإحاطة بدائرة المعتقل، إذ ألقوا القبض على جميع أصدقائي -القريبين منهم من الحزب والبعيدين - بعد أن داهموا منزلي. لقد أحضروا جميع من كنت أمتلك لهم صوراً شخصية وتذكارية، وكان أغلبهم بعيداً عن نشاطات الحزب لكنهم تعرضوا لنفس التعذيب وسجنوا معي ذات الفترة التي قضيتها في السجن.

أمضيت (37) يوماً في هذا الفرع ثمّ تمّ نقلي بعدها إلى "كركون الشيخ حسن" وهو سجن سري صغير يحوي مائة معتقل في مهجعين و(24) زنزانة في قلب مقبرة تدعى "مقبرة باب صغير" وهي مقبرة قديمة وتعتبر واحدة من أقدم مقابر مدينة دمشق، قريبة من منطقة باب مصلّى باتجاه باب الجابية، وقد بقيت هنالك حوالي السنتين. كان يكفي لهذا المكان قسوةً "رمزيته" من حيث تواجده داخل مقبرة وتشبيهنا بالأموات فيه.

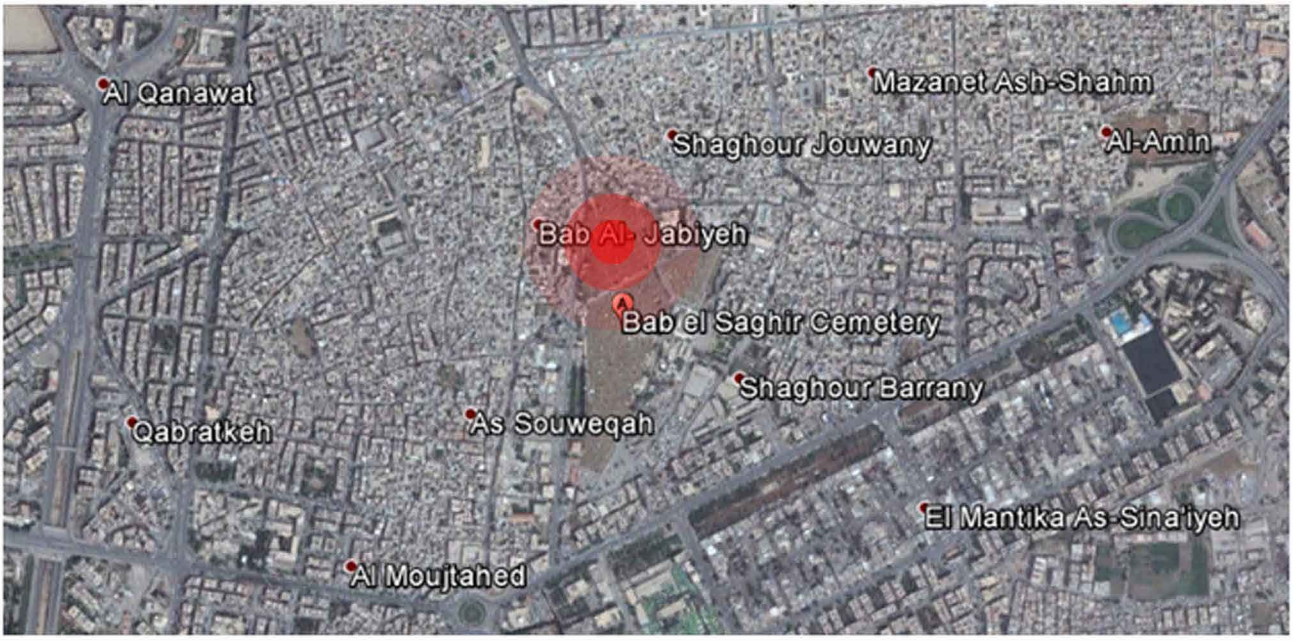

صورة قمر صناعي تبيّن مكان "كركون الشيخ حسن" ضمن "مقبرة باب صغير"، بحسب الأهالي وشهود العيان

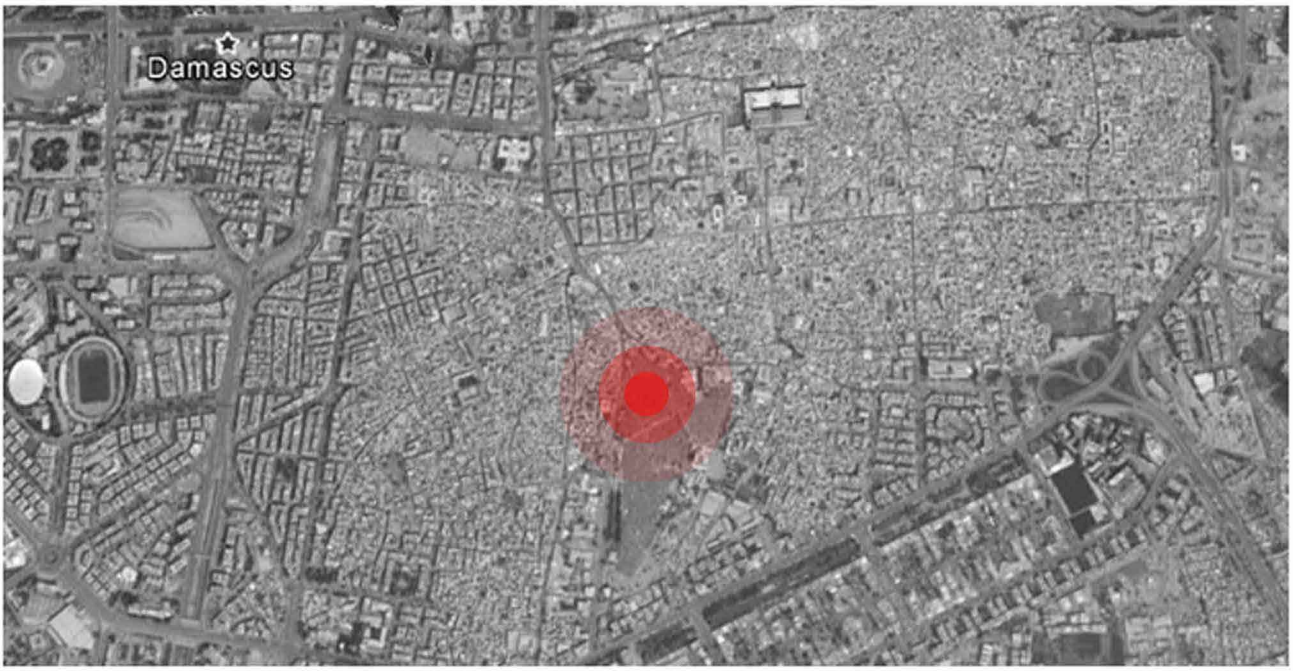

في العام 1985 ،وبعد إنشاء سجن عدرا المركزي، نفذنا إضراباً عن الطعام داخل "كركون الشيخ حسن" مطالبين بنقلنا إلى سجن عدرا، وقد تحقق لنا ذلك في نهاية شهر أيار من نفس العام ولكن دون أن نمثل أمام أيّة محكمة إذ بقينا معتقلين بموجب الأحكام العرفية المفروضة في تلك الفترة. لم يكن لدينا أدنى فكرة عن تاريخ إطلاق سراحنا أو المدة التي سنقضيها في السجن، كما كنّا ممنوعين من الالتحاق بالجامعات أثناء الاعتقال في سجن عدرا، وكانت مقولتنا الشهيرة **"اعمل لسجنك كأنّك مسجونٌ أبداً، واعمل لحريتك كأنّك مفرج عنه غداً"** هي السائدة على حياتنا داخل عدرا. ومع ذلك كان الوضع في سجن عدرا جيداً نسبياً قياساً إلى ما كنّا عليه، خاصة من ناحية الزيارات المنتظمة. بل يمكنني القول أن جانباً ايجابياً جوهرياً طرأ على حياتي خلال السنوات التي قضيتها في سجن عدرا، حيث سمحت لي المكتبة التي كنت أرتادها داخل السجن بالاطلاع على ثقافات أوسع من تلك الثقافة الشيوعية التي نشأت عليها والتعرف على أدبيات جديدة مختلفة عن تلك التي تعلمتها أثناء نشاطي مع "اتحاد الشباب الديمقراطي" و "الحزب الشيوعي السوري" ومن بعده "حزب العمل الشيوعي". كما ساهمت ملاحظاتي المباشرة لأوضاع السجناء وردود أفعالهم وأفعال ذويهم على ظروف الاعتقال وعذاباتهم الوجدانية وآلامهم الناتجة عنها في تكوين رؤى أكثر عمقاً حيال أهمية تلك المساحة الفردانية والخاصة للشخص والتي غالباً ما كانت غائبة أمام الحضور القوي لتغليب المصلحة العامة عليها، لقد ساهمت تلك التأملات الطويلة بتبديل أنماطي الثقافية واتجاهي نحو الايمان بثقافة اللاعنف كطريق للتغيير، مما أكسبني طاقة جديدة مكنتني من بناء قدرات أفضل لم تكن متوفرة سابقاً.

أطلق سراحي نهاية العام -1991 وتحديداً في شهر كانون الأول - بموجب عفو رئاسي شمل حوالي ثلاثة آلاف معتقل في سوريا منهم منتسبين إلى العديد من الأحزاب والتيارات السياسية. وفور خروجي من السجن أعدت التسجيل في الجامعة وتابعت دراسة الطب بعد توقفي عن الدراسة رغم الصراعات الداخلية التي انتابتني حيال عودتي لهذا الفرع أو تغييره لفرع آخر.

تأملات السجن تثمر توجهاً جديداً

في تسعينيات القرن المنصرم تراجع العمل السياسي في كلّ سوريا، ولكن بالمقابل لم تعد قضيّة الديمقراطية قضية ثانوية، وهذا ما دفع الحزب الذي كان ينتمي له جلال "حزب العمل الشيوعي" من رفع شعار "التسعينيات سنوات النضال من أجل الديمقراطية وسنوات الظفر بالديمقراطية". وبدأت ذهنية الناشطين المهتمين في هذا المجال تتغير باتجاه الامكانات المتوقعة للعمل، وهو ما تمّ ترجمته من خلال الأنشطة التي كان جلال والطلّاب يواظبون عليها مثل "الأسابيع الثقافية" في جامعة دمشق، وبحسب جلال فقد كانت جدّ مفيدة لتبادل الأفكار والآراء حول قضايا البلد، إضافة إلى النوادي السينمائية التي كان لها علاقة بالجامعات. هذه النشاطات كانت المتنفس الوحيد للعمل والاحتكاك بالشأن العام في سوريا بالنسبة لجلال والنشطاء أمثاله. وقد حاول بعضهم إنشاء "لجان الدفاع عن الحريات الديمقراطية وحقوق الإنسان"، ولكنّ السلطات أقدمت على اعتقالهم، وكانت بمثابة ضرب لمحاولة الجمع ما بين أشكال العمل المدني والسياسي، ومن خلال جميع الأنشطة في تلك السنوات تطوّرت فكرة اللاعنف عند جلال، **يقول جلال في هذا الصدد:**

قبل دخولي السجن كنت أرى تجليات الثورة من خلال الكفاح المسلح والثورة العنفية، لكن تصوراتي اختلفت خلال سنواتي الطويلة ومن خلال مجموعة عوامل تداخلت فيما بينها لتشكل لي توجهاً جديداً، كنّا مجموعة من النشطاء في ذلك الوقت وكان السؤال المحوري لدينا هو: هل ما زلنا مع العنف الثوري؟ هل يمكن للعنف في سوريا أن يكون ثورياً؟ وكانت إحدى الخلاصات التي تمّ التوصل إليها استناداً إلى أحد الدروس المستفادة من "الانتفاضة الأولى ضدّ حافظ الأسد" في الثمانينيات هي "**سهولة تحويل العنف الثوري إلى عنف غير ثوري، أي إلى عنف طائفي أو عنف أهلي**". ومن هنا بدأنا نفكّر بترسيخ العمل الديمقراطي بالوسائل السلمية غير العنفية، وإذا لم يكن هنالك من بدّ للعنف فيتوجب على الثوار حينها تخفيف مخاطره المحتملة وتقليل تكاليفه من خلال جعله عنفاً محدوداً بأقصر فترة ممكنة وبأقل عدد من الخسائر والضحايا. ولاشك أننا كمجموعة لم نكن لنقرر ما إذا كانت انتفاضة الشعب ستأخذ طابعاً عنفياً أو لا، لكن ما يتوجب علينا فعله حينها أن نكون مجهزين للتخفيف من حدة العنف فيها.

وقد اطلّعت على كتابات كثيرة في تلك الفترة حول اللاعنف وكتابات أخرى حول مواجهة العنف، وتعرّفت بشكل قريب جداً إلى الأستاذ "**جودت سعيد**" أحد منظري ثقافة اللاعنف في الذهنية الإسلامية، وتعمقتُ في فهم آلية عمل اللاعنف.

جودت سعيد – مصدر الصورة (مجلة صور).

"كنّا متخوفين من استثمار "النخبة السياسية" الرديئة سواء الإسلامية أو السلطوية لموضوع الطائفية، وكان من المعروف والمكشوف في ذلك الوقت أن النخب السياسية التي تفشل في العمل ضمن إطار الطرق السياسية المألوفة تبدأ باللجوء للطرق الرديئة للاستقطاب الطائفي، بينما تكون الأمور في العمل الديمقراطي مختلفة من جهة الذهاب لنقاشات وأحاديث وبرامج وانتخابات واقناع وغيرها من الممارسات الديمقراطية التي لم تكن متاحة."

تخصص جلال في الطب النفسي ثم سافر إلى المملكة العربية السعودية في العام 2002 للعمل في هذا الإختصاص، وبعد خمس سنوات عاد إلى سوريا للعمل في "مشفى ابن سينا"، كان ذلك المشفى يحتاج إلى ذهنية المدافع عن حقوق الإنسان بنفس حاجته إلى ذهنية الطبيب الذي يعالج المرضى، وذلك بسبب الانتهاكات الصارخة لحقوقهم فيها، فقرر مع العديد من الأطباء القيام بتأسيس مجموعة من أجل معالجة أوضاعهم المأساوية، وتحويل هذا المكان من مستودع للمرضى إلى مشفى متطور لكنهم تعرضوا لضغوط هائلة من قبل الأجهزة الأمنية لإفشال مشروعهم.

الاعتقال الأول لجلال خلال الثورة

في الثامن من أيار عام 2011 خرجتُ في تظاهرة سلمية بمنطقة عرنوس وسط مدينة دمشق، وكان قد سبق ذلك نقاشات هامّة مع بعض اليساريين والشيوعيين حول الخروج إلى التظاهر من الجوامع، وخلصنا جميعاً إلى الاتفاق على أن نخرج من الجوامع ولكن ليس بشعارات الجامع بل أن نرفع شعارات الديمقراطية التي تحمل أبعاد الحرية والكرامة بالمعنى الدقيق للكلمة. وبقيت هذه النقاشات دائرة لفترة معينة إلى أن بدأت المقترحات حول الخروج من الساحات، حيث كنتُ أعمل في مجال التشبيك ما بين الطاقات الثورية في دمشق. قررنا حينها الإعداد لمظاهرة تخرج من منطقة عرنوس، باعتبارها مكاناً محايداً لا يحمل أي رمزية دينية. قمنا بتجهيز اللافتات واللوحات وأخبرنا الأصدقاء أن المظاهرة سوف تخرج من ساحة عرنوس. لم تكن مظاهرة عرنوس فقط مجرد دعوة، بل أيضاً اختباراً للأشخاص الذين كانوا يرفضون الخروج من الجوامع. أمّا بالنسبة للمظاهرة نفسها فقد كانت مفاجئة حتى للسلطة، حيث بدأ الاعتصام بترديد الأناشيد الوطنية مثل "موطني" و "إنّي اخترتك يا وطني" فبدا عليهم الاستغراب وخاصة أنّنا بالقرب من إحدى "الأصنام" المنتشرة في دمشق. وبعد أن ازداد عدد المتظاهرين قمنا بإخراج اللافتات والبدء بالمسير نحو مجلس الشعب بلوحات تحمل شعارات "لا للطائفية"، "نعم للديمقراطية"، "فكّوا الحصار عن درعا"...كان واضحاً الارتباك على عناصر الأمن آنذاك، ثم سمعنا عبر أجهزة اللاسلكي التي يستخدمونها أمراً صدر باعتقالنا و"اعتقال اللوحات معنا".

السلّمية فقط ولا شيء سواها

أحد الأصدقاء الذين تم اعتقالهم معي فوجئ بعدم مقاومتي لعناصر الأمن أثناء اعتقالنا وسألني عن السبب في ذلك بعد أن حُشرنا في أحد مهاجع فرع الخطيب "أمن الدولة"، قلت له حينها: "بأنني لم أعد من أنصار العنف الثوري، أنا موجود هنا لأنني في حرب اللاعنف، ويجب أن نفرض وجودنا بدون أي عنف." فردّ صديقي: " أنا مو زابطة معي قصة اللاعنف تبعك." لقد تبنى جلال هذه الذهنية طوال مسيرته في الدفاع عن سلمّية الثورة السورية وأهمية استمرارها دون اللجوء للعنف، وبدا ذلك جليّاً من خلال تعاطيه مع الحراك الشعبي في سوريا.

الاعتقال الثاني، نيسان 2012

بعد الإفراج الأول شارك الطبيب جلال نوفل بالتوقيع على "بيان تنسيقية أطباء دمشق" مع عدد آخر من الأطباء منهم "إبراهيم عثمان"، كانت مشكلة الجرحى المتظاهرين خلال الثورة قد بدأت تطلّ برأسها لتأخذ شكل ظاهرة واضحة، فكان لا بدّ من إيجاد آلية لضبط طرق التعامل مع جرحى المظاهرات الذين كانوا يتعرضون للرصاص الحي أو الضرب المفرط أو الأذى الجسدي. وقد تُرجم البيان إلى أعمال حقيقية من خلال إنشاء المشافي الميدانية والنقاط الطبّية وتشبيك العمل الطبّي وصولاً إلى محافظة حمص. يقول جلال في هذا الصدد:

كانت تجربة تنسيقية أطباء دمشق تجربة مهمّة جداً، وقد تعرّضت هذه التجربة لضغوط كبيرة وملاحقات متعددة من قبل الأجهزة الأمنية، بل وتمّ اعتقال عدد من الأطبّاء. مما اضطرّ البعض إلى نشر فيديوهات عن الطبيب إبراهيم والإدعاء بأنّه قتل بسبب كثرة الكمائن التي كان يتعرّض لها من قبل الأجهزة الأمنية،كانت طريقة فقط للتخفيف من الضغط الممارس على إبراهيم وعدم دفع السلطات لإيذاء أهله. فيما بعد قمنا بتجديد عمل تنسيقية أطباء دمشق مع العديد من الأطباء الآخرين بعد أن توقف عملها قليلاً بسبب الضغوط والاختلالات في العمل الطبّي نفسه وكثرة الجهات التي تعمل في نفس المجال. وبالفعل استطعنا استعادة حيوية تنسيقية أطباء دمشق وكان ذلك الهدف المباشر من اعتقالي للمرة الثانية خلال الثورة في نيسان من العام 2012. إذ قام جهاز المخابرات الجويّة باعتقال المجموعة الأساسية في التنسيقية وكان اسمي مع عدد من زملائي معروفاً لديهم، تنقلت وقتها ما بين آمرية الطيران في ساحة الأمويين في دمشق ومطار المزّة العسكري. وكان سبب الاعتقال الأساسي هو رصد ومراقبة هاتف الزميل "مهند" أثناء إحدى المهمّات إلى قطنا في ريف دمشق حيث تمّ اعتقاله ووضعه في الفرقة الرابعة التابعة للجيش النظامي السوري ثم إعادته لاحقاً، وقد تعرض لتعذيب شديد وقاس جداً كونه وسيلة التواصل المباشرة مع الأطباء.

كانت حملة اعتقال واسعة جداً شملتنا كما شملت الدائرة المحيطة بنا من أشخاص غير ذي صلة بالتنسيقية، لقد أرادوا معرفة مراكز التزويد الأساسية بالأدوية ومصادر تأمين الأدوات الجراحية والأموال الخاصة بشراء المستلزمات الطبية. لكنهم لم يتمكنوا من الحصول على معلومات كثيرة بسبب اتفاقنا على تقاسم حمل وأعباء العمل، عدا أنّهم اقتحموا أحد المراكز الطبّية التي كانت تديرها إحدى زميلاتنا ،والتي كانت قد خرجت من سوريا، فقاموا بإلقاء القبض على جميع من كان موجوداً أثناء الاقتحام وكان عددهم (23) شخصاً، تمّ اطلاق سراحهم لاحقاً.

بقينا في الاعتقال نحن الأشخاص المعنيين لمدّة ثلاثة أشهر، وكانت محكمة قضايا الإرهاب لم تتشكّل بعد، حيث تمّ تحويلنا "للقضاء العادي" وعرضنا على القاضي الذي سألنا بدوره عن طبيعة عملنا وتفاصيل أخرى تتعلق بعلاج المسلحين، وقد أخلى سبيلنا بعد نفينا تلك الأقوال لنعلم لاحقاً أن قضيتنا قد حولت إلى محكمة قضايا الارهاب بعد تشكيلها.

صورة اقمار اصطناعية توضّح مكان الاحتجاز التابع للمخابرات الجويّة الذي اعتقل فيه جلال للمرة الأولى وهو "آمرية الطيران في دمشق" حيث تمّ نقله بعد ذلك إلى فرع المخابرات الجوية في مطار المزّة العسكري.

الشبْح كالخبز زادُ الجلاّد للحصول على المعلومات

عند بداية الاعتقال ومعرفتي بنقلنا إلى فرع المخابرات الجويّة، أدركت تماماً حجم التعذيب الذي ينتظرنا، وبالفعل فقد تعرّضت لتعذيب قاس تنوعت أساليبه ما بين " الضرب والصعق الكهربائي والجلد بواسطة أنبوب المياه الأخضر" وأساليب أخرى تركت جروحاً وانتانات طويلة، كانت تجربة قاسية وبشعة بكل معنى الكلمة، تعرّضت فيها لضرب لم أتعرض له مسبقاً على الإطلاق كالصعق الكهربائي القوي. كما تعرفت للمرة الأولى على الشبح، وهو الخبرة الجديدة التي تعرضت لها شخصياً بعد أن كنت أسمع بها، فالكهرباء والدولاب والجلد والدوس بالحذاء على الوجه أساليب تعذيب اختبرتها سابقاً أما الشبح فقد أصبح مثل الخبز بالنسبة للمعتقل لابد منه كأسلوب للضغط من أجل الحصول على المعلومات. أذكر عندما أنزلني السجّان أنني نظرت إلى يديّ لأتأكد إن كانت ما تزال معلقة بسبب الخدر، وقد استمر الخدر ساعات عديدة.

وبلغة الأرقام فقد كنتُ شاهداً على ثلاث حالات وفاة لأشخاص قتلوا نتيجة التعذيب الشديد، حيث تعرضوا لأساليب تعذيب فظيعة جداً في هذا المكان، كان هنالك بعض المعتقلين ممن تمّ شبحهم لمدّة ثمانية أيام متتالية دون طعام أو اعتناء طبي.

"الشبح" إحدىطرق التعذيب الشائعة خلال جلسات التحقيق في الأجهزة الأمنية السوريّة، حيث يتم تعليق المعتقل من يديه لساعات طويلة، تلامس قدماه الأرض بشكل بسيط وفي أحايين أخرى تكون الأرجل بعيدة عن الأرض.

السوريون متساوون فقط في التعذيب أمام الجلاد

خلال تواجدي في المخابرات الجوية سواء في آمرية الطيران أو في مطار المزة وأثناء مسار التحقيقات كانت تطبق على الجميع نفس أساليب التعذيب بقساوتها ووحشيتها، لم يكن هنالك من تمييز بين سليم الجسد وعليله، ولا فارق بين كبير في السن أو صغير. وسائل تعذيب واحدة يتعرض لها الطبيب والمهندس كما يتعرض لها العامل، ونفس الضغوط تمارس على المتعلم كما على الأميّ، فالتساوي لا يكون أثناء التحقيق إلا أمام الجلاد. حتى أولئك الذين يتم اعتقالهم دون أن يكون لهم صلة بالثورة غالباً ما يطبق عليهم نفس طرق التعذيب، أتذكر مثلاً قصة "أبو جعفر" من مدينة "الرستن" في محافظة حمص عندما قاطع مرة أحد نقاشاتي الهامسة بصحبة بعض الأصدقاء ليقول لي بأننا نحن "جماعة الحرية" السبب في وجوده بيننا كمعتقل، فاجأني قوله حينها فأجبته بأن من المفترض أن تلوم السلطة على اعتقالك لا نحن الذين لم نفعل لك شيئاً، نحن فقط خرجنا لنطالب بحريتنا. ردّ قائلاً بأنه لولا خروجكم لما كنت الآن بعيداً عن أهلي وأولادي الذين أحبهم، وأنا لست معارضاً ولا مؤيداً أنا فقط أريد اتقاء الشر، فما كان مني إلا أن أجيبه بأنها سلطة بشعة جداً تلك التي اعتقلتك وأنت لم تفعل لها شيئاً. هذا الشخص تعرض لتعذيب شديد وكان قد مضى على اعتقاله تسعة أشهر.

سجّانون أقل سوءاً وسجّانون هم الأسوء

بالنسبة لتعامل السجّانين معنا كمعتقلين في هذا المكان فقد لاحظت نوعين من التعاطي مع ظروفنا وذلك في "آمرية الطيران"، كان هناك "فئتان" واحدة ليست الأسوء والثانية هي الأسوء. الأولى كانت تترك لنا فسحة صغيرة من الوقت أثناء الاستحمام وتتابع احتياجاتنا البسيطة نوعاً ما ولم يكن لديها نفس أسلوب الفئة الثانية الأكثر سوءاً في استقبال المعتقلين من الفروع المختلفة، والتي كانت تُذيقهم شتى أنواع الضرب والأذى والاهانات لا لشيء إلا لكونهم معتقلين. وأذكر هنا مفارقتين بينهما حيث وقع أحد المعتقلين يوماً في نوبة صرع فأخبرت رئيس الفئة الأولى كطبيب بأعراض هذه النوبة والدواء المناسب لعلاجها فما كان منه إلا أن أحضرها، في حين شهدت على الفئة الثانية حالة أقرب للتوحش في ضرب أحد القادمين الجدد لدرجة لم يتحملها الشخص الذي سألهم أن يتوقفوا ليخبرهم بما يشاؤون معرفته فأجاب أحد السجّانة أنه لا يريد منه شيئاً إلا أن يصمت فقط، وقد استمروا في ضربه حتى دخل إلينا مدمّاً. أما بالنسبة للسجّانين في مطار المزة فلا يوجد فارق بين من هم أقل أو أكثر سوءاً فجميعهم كانوا سيئين إلا عدداً محدوداً منهم، وحتى هؤلاء يصبحون وحوشاً بمنتهى الشراسة عندما تبدأ جلسات التحقيق.

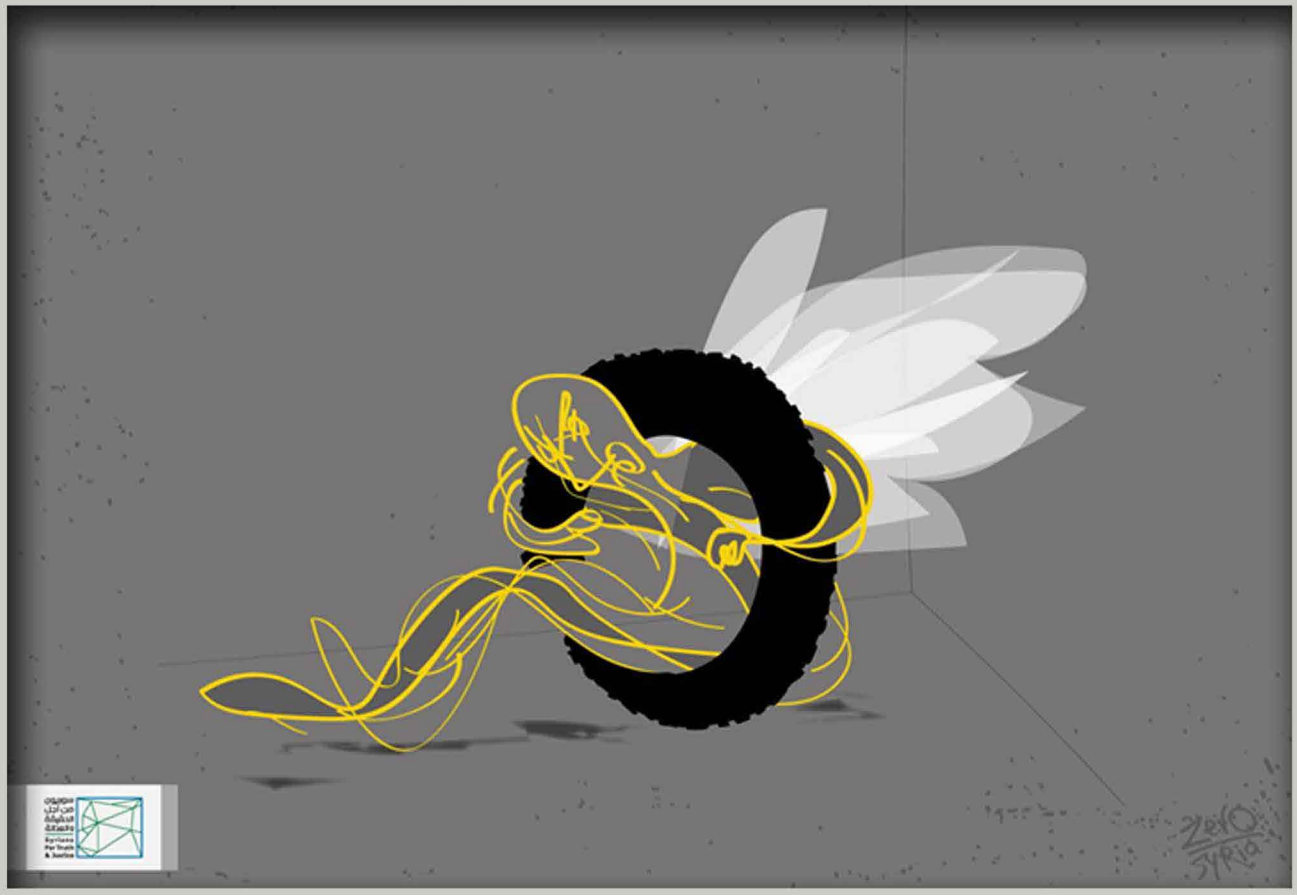

"الدولاب" أحد طرق التعذيب المتبعة أيضاً في أقبية الأجهزة الأمنية السورية، حيث يتمّ وضع المعتقل في عجلة فارغة وتبدأ عملية التحقيق المترافقة بسيل كبير من الشتائم والضرب على كافة أنحاء الجسم بوسائل مختلفة مثل السياط والعصي والصعق الكهربائي، وعند وضع المعتقل في هذا الدولاب يعجز عن القيام باي حركة أو فعل.

الاعتقال الثالث أثناء الثورة، الاعتقال الأقسى والأكثر رعباً

كان ذلك بداية العام 2014 بعد أن حاولنا في العام 2013 إعادة إحياء الحراك المدني السلمي في دمشق من خلال توزيع مكبرات الصوت (أجهزة سبيكر تشبه الراديو غالباً ما كانت توضع في زوايا وحاويات متعددة وتطلق شعارات الثورة) في أكثر من ثلاثين منطقة في دمشق على أن تصدح بأغاني الثورة وشعاراتها الأولى كاحتجاج على التطورات التي حرفت من مسارها ونقلتها من طابعها المنادي بالحرية والكرامة لصالح تحقيق مآرب مختلفة. فاشتركنا لتنفيذ فكرة هذا المشروع مع مجموعة من نشطاء الحراك السلمي في دمشق، وفي إطار تحضيرنا وبعد انتهائنا من إجراء الاختبارات والتجارب تمّ اعتقال عدد من أعضاء تجمّع "الشباب السوري الثائر" وكانوا تسعة أشخاص قضى منهم على الفور ثلاثة أشخاص تحت التعذيب في الفرع 215 ، لم يستطع أحدهم تحمل هول التعذيب فأخبر عناصر الفرع بنشاطنا الذي كان عبارة عن توزيع مكبرات الصوت في أحياء دمشق، فما كان منهم إلا أن أحضرونا. اعتقلوا أولاً صديقتي المعروفة في دمشق باسم "شام" مع خطيبها آنذاك، ثم اعتقلوني.

كان ذلك في الفرع 215 التابع للمخابرات العسكرية، وأثناء عملية التحقيق التي دامت طويلاً لم نشأ أن ننكر هذا النشاط خاصة بعد أن علمنا باستشهاد زملائنا في تجمع الشباب السوري الثائر، فتكلمت أنا وصديقتي بشكل واضح عن توزيعنا لمكبرات الصوت ورغبتنا في إعادة إحياء الحراك السلمي من خلال طرح الشعارات التي ترفض أسلمة الثورة وتضييق آفاقها بإعطائها طابعاً غير الطابع الذي انطلقت منه، أخبرْنا المحقق بأننا مع دولة مدنية ديمقراطية يسودها القانون، ولم ننكر تنسيقنا مع الشباب السوري الثائر وآخرين بأسمائهم الحركية، كما اعترفنا بمكان وجود مكبرات الصوت بعد أن كنت مطمئناً بأنهم لن يجدوا أحداً فيه، فالشاب الذي كان يخفي هذه الأجهزة كان قد سافر خارج البلاد مباشرة بعد اعتقال أفراد التجمع. وفي الحقيقة تطابقت المعلومات التي أدلينا بها مع المعلومات التي حصلوا عليها من "الشباب السوري الثائر" وهو ما خفف من حدة التعذيب الممارس علينا، إضافة إلى أن عدم انكارنا خالف توقعاتهم المفترضة وتصوراتهم بأننا قد ننكر هذا النشاط فكانت المعلومات تُقدم لهم بكل يُسر.

لم أتعرّض للتعذيب البشع الذي تعرّض له باقي المعتقلين في الفرع 215 ولكنني شهدتُ أهوالاً كثيرة لا يقبلها العقل، كانت ظروف الاعتقال رهيبة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى. شهدتُ حالات موت عديدة، وكانت أول مرة شعرت فيها بأنني لن أنجو من الموت هي داخل هذا الفرع

خشب وحديد

لا أعلم أصل التسمية ولكن أي وافد إلى الفرع 215 لا بد وأن يتعرف إلى أحد هذين النوعين من "الجماعيات": جماعيات "خشب" أو جماعيات "حديد"، حيث قسمت غرف هذا السجن إلى غرف أقل موتاً وغرف يتدرج فيها الموت وصولاً إلى "غرفة العزل" أو غرفة الموت. من حسن حظي أن وجدت في جماعيات الخشب، فجماعيات الحديد هي الأسوء. هناك تنتشر الأمراض الوبائية وبخاصة التهابات الكبد والأمراض التنفسية وأكثرها السّل، هناك النسب الأعلى للوفيات وهناك كنت أرى هياكل عظمية تتحرك قبل أن تموت. عديدة هي حالات التوسل للعناصر أو "الشاويشية" من أجل عدم نقل المعتقل إليها، لقد قبّل أحدهم قدم أحد العناصر راجياً عدم نقله إلى جماعيات الحديد، لقد بكى قائلاً: لا أريد أن أموت، لدي أطفال بحاجتي. ومن المعروف داخل هذا الفرع أن الناجي من عمليات التعذيب أثناء التحقيق، قد لا يأمن حياته من سوء الشروط الصحية والأمراض المنتشرة في هذا المكان. بل إن حالات الوفاة الناتجة عنها قد تكون أكثر من تلك الناتجة عن التعذيب المباشر.

الشاويش هو من يوزع الموت والحياة

الشاويش أو رئيس "الجماعية" معتقل كسائر المعتقلين يتم تعيينه من قبل عناصر السجن من أجل الإشراف على توزيع الطعام وإدارة أمور الغرفة والحياة اليومية للمعتقلين، لكن صلاحيته داخل فرع 215 تتعدى ذلك حتى وصلت في بعض الحالات إلى الاشراف على توزيع الموت وتوزيع الحياة، كان بعضهم يقوم بالتعذيب وأحياناً قد ينفذون أوامر بالقتل. هو معتقل متعاون مع السلطة يملك امتيازات خاصة في إدارة شؤون السجن باعتبار أن العناصر لا تتواجد داخله إلا ما ندر، لم أر ضابطاً يدخل السجن طوال فترة تواجدي حتى العناصر لا تأتي إلا كل ثلاثة أو أربعة أيام لتفقد الأحوال. ومن أكثر تلك الامتيازات أنه يستحوذ مع بعض أعوانه نصف مساحة الغرفة تقريباً لراحتهم مقابل حشر بقية المعتقلين معه في الغرفة -والذين قد يتجاوز عددهم السبعين- في نصف المساحة المتبقي.

سانتمترات الحياة

ضمن هذه الشروط اللاانسانية والغير طبيعية للحياة اليومية غالباً ما يتصرف المعتقل كردّ فعل أراه طبيعياً، خاصة من أولئك المعتقلون الذين تم احتجازهم على أساس انتماءاتهم المناطقية لا على أساس مشاركاتهم الثورية، فقد يتشاجر المعتقلون فيما بينهم للحصول على بضع سانتمترات يجلسون ضمنها عندما يتعلق الأمر بالازدحام الشديد وانتهاك تلك المساحة الشخصية الضيقة وقد يصدر عن البعض سلوكيات عدوانية تجاه بعضهم الآخر للحصول على قطعة خبز أو حبة زيتون، إنها ردود فعل لا انسانية على شروط لا انسانية وظروف غير بشرية هي ما تجعل المعتقل يرد على العنف الشديد الذي يتعرض له بعنف بديل يحاول فيه الحفاظ على حياته.

الطعام مقابل الاستحمام

بعد أن أدخلوني إلى الجماعية صادف أن التقيت أحد المعتقلين الذين مضى على تواجدهم هناك قرابة العام، كان من شباب الحراك السلمي في مدينة درعا وكان يعلم عن نشاطاتي وقد تعرف عليّ سريعاً. فسألني إن كان يستطيع أن يقدم إليّ خدمة في هذا المكان القذر، في الحقيقة كان قد مضى وقت لم أستحم فيه فسألته إن كان بالإمكان أن يؤمن لي فرصة للاستحمام فما كان منه إلا أن طلب من الشاويش ليسمح لي بالاستحمام. لم يكن الماء ساخناً لكنني تمكنت من غسل جسمي بمياه باردة وقطعة صغيرة جداً من "الصابون"، طبعاً كان ذلك انجازاً عظيماً أن يستحم المعتقل الجديد في الفرع 215 . فإن أراد أحدهم الاستحمام كان يتوجب عليه أن يقوم بمقايضة طعامه لقاء ذلك وهو ما لا يفعله أغلبهم بسبب حاجتهم بفترة التحقيق لما يقيهم الانهيار، كان يجب أن يدفع على الأقل "5" أرغفة من الخبز- وهو ما يعادل قوت يومين – ثمناً ليحصل على فرصة الاستحمام، بالمياه الباردة طبعاً، وقد لا يحصل عليها حتى وإن أعطى طعامه للشاويش المسؤول عن الحمامات.

الصعق بالكهرباء العالي، أخطر أنواع التعذيب وأكثرها شيوعاً

كان يتمّ تعذيب بعض المعتقلين بالصعق الكهربائي العالي (220) فولت، حيث كان يتم ربطه بكرسي أو مباشرة بجسم المعتقل، كان يتبع ذلك صراخٌ عالٍ جداً من شدّة الألم. كنّا متواجدين في نفس "صالة التعذيب"، وبعد انتهاء عمليات التحقيق في الصالة كانت العناصر تترك وسائل التعذيب وراءها، أحد الوسائل كانت عبارة عن "إطار كرسيّ" يتمّ من خلاله طوي جسم المعتقل (طريقة الكرسي الألماني في التعذيب) وعندما كان المعتقل يعود من حفلة التعذيب هذه كان يمشي على يديه ورجليه - كما في مرحلة "الحبو" عند الطفل- بسبب شدّة الألم، وأحياناً كان يتمّ توصيل التيار الكهربائي بهذا الكرسي الحديدي وقد كان ذلك يسبب حروقاً كهربائية فظيعةيموت بسببها مباشرة أو لاحقاً، ففي بيئة قذرة وغير نظيفة مثل بيئة الفرع 215 من كان ينجو من عمليات التعذيب هذه، كان يموت بسبب التهاب تلك الجروح والانتانات التي خلفتها.

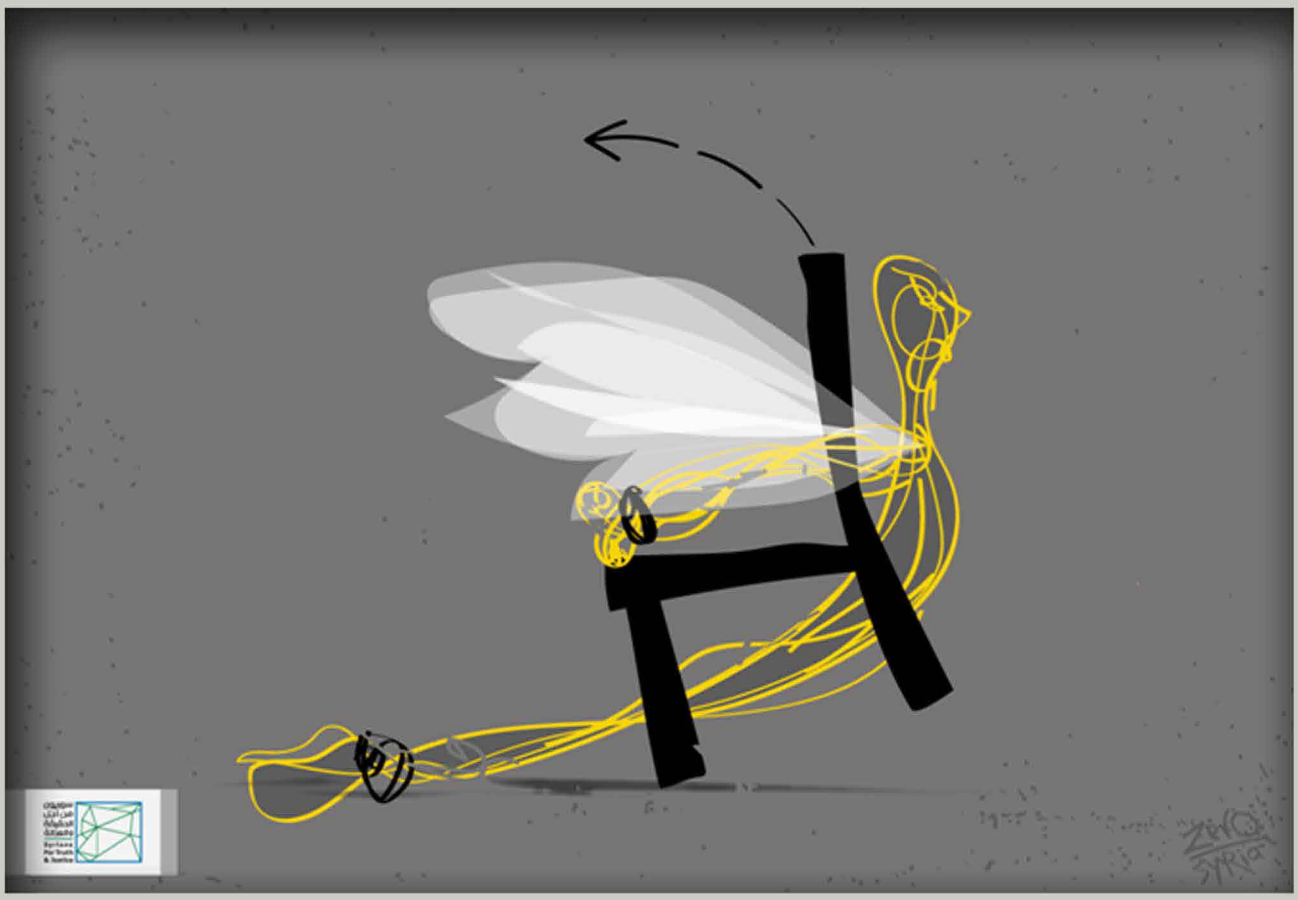

"الشبح" إحدىطرق التعذيب الشائعة خلال جلسات التحقيق في الأجهزة الأمنية السوريّة، حيث يتم تعليق المعتقل من يديه لساعات طويلة، تلامس قدماه الأرض بشكل بسيط وفي أحايين أخرى تكون الأرجل بعيدة عن الأرض.

غرفة العزل، غرفة الاحتضار والموت

أثناء عمليات التحقيق مع أحد المعتقلين كان الصراخ الناتج عن التعذيب قد توقف فجأة وبشكل كامل، فسأل المحقق العنصر الذي كان يقوم بعملية التحقيق عن مجريات التحقيق نفسها، فما كان من العنصر إلا أن أجاب بأنّ المعتقل لا يتكلّم!! فطلب المحقق إعادته إلى "الشبح" والتحقيق معه مجدداً، فردّ العنصر أنّ المقصود بأنّه لا يتكلم أي أنّه مات!! قال له المحقق إذن اذهب واجلب الشخص التالي وارمي بهذا الشخص إلى "غرفة العزل."

وغرفة العزل هي الغرفة التي يتم فيها وضع الجثث إضافة إلى المعتقلين الذين هم في طور الاحتضار، وخلال تواجدي في هذا الفرع حاولت الخروج على مدى أسبوع تقريباً لأحصي عدد الجثث التي يتم نقلها يومياً من هذه الغرفة عند قدوم العربة الخاصة لنقلهم في الصباح، كان أقل عدد شاهدته من تلك الجثث التي كان يتم سحبها من الغرفة يومياً (11) وأكثرها (15)، وعندما أخبرت أحد المعتقلين الذين كان قد مر على تواجده فترة طويلة بما رأيت أجابني بأننا الآن في "فترة العزّ"، لأن أقل رقم كنا نراه لأعداد المتوفين داخل هذا الفرع كان في العام الماضي (15) يومياً وكنا نرى أعداداً تصل إلى(25) يومياً، وأضاف أنه في نهاية عام 2013 اجتاح السجن موجة اسهال شديد أفضت إلى استشهاد ما يقارب 2000 معتقل، كان "البراز" يملأ المكان بأكمله وأنت تعلم أيها الطبيب أن البراز ناقل للالتهابات.

هذيان يؤدي للموت

خلال فترة تواجدي في الغرفة التي فرزت إليها (35 يوماً) توفي أمام عينيّ اثنا عشر معتقلاً خمسة منهم توفوا بسبب التعذيب المباشر والبقية جراء أمراض بدأت بتقيحات في الجلد ثم تحولت بعدها إلى التهابات نسيجية ثم انتانات في الدم مصاحبة لهذيان تدل على حدوث "انتان الدم".

أحد المعتقلين كان يعاني من حالة "فصام "، شاب من أهالي مدينة داريا في السادسة والثلاثين من عمره، لم يكن لينام أبداً وكان دائماً يتحدث إلى نفسه كما لو أنه يحمل جهاز هاتف محمول، كان يخاطب أحد أفراد عائلته يعاتبه ويطلب إليه أن يأتي فوراً لأخذه. كان البعض يستهزأ به وأحياناً يضربه، وخلال عملية التحقيق الأولى تعرّض لضرب شديد على منطقة الرأس بشكل وحشي وعلى بقية أنحاء الجسم وعندما عاد أخبرني أن رأسه يؤلمه كثيراً وقد ضربوه عليه بشدة، وقد توفي مساء ذلك اليوم . وفي حادثة أخرى لشخص لديه تأخر عقلي قال له المحقق أنّك كاذب وتدّعي بأنك مجنون ولذلك سوف نعذبك حتى تتذكر في التحقيق القادم ألا تأتينا بهذا الشكل، فقام بسكب المياه المغلية على ظهره مما أدى إلى احتراق الجلد، وعندما عاد إلى المهجع وبسبب البيئة القذرة و"القيح" المنتشر على الأرض التهب بسرعة ظهره المسلوخ وتوفي في اليوم التالي.

ليس اعترافاً، بل إملاء اعتراف

كثيرون ممن اعتقلوا بالفترة التي كنت فيها لا علاقة لهم بالثورة يعتقلون على الحواجز وفي الطرقات بسبب هويتهم التي تدل على منطقتهم أو نتيجة مداهمات للمنطقة الثائرة التي ينتمون إليها أو لأسباب أخرى، وبالمحصلة هؤلاء لا يمكنهم تحمل التعذيب ،كما يتحمله الشخص الذي نذر حياته لنشاطه الثوري، بحيث تكون قدرتهم على التحمل ضعيفة مما يضطره لتقديم أي كلام ينجيه من التعذيب العنيف وغالباً ماكنت أسمع عبارة "أعطني ورقة بيضاء لأبصم عليها بما تريد". والأهم أن من يعتقل دونما سبب غالباً ما لا يملك معلومات ،مما يضطره لتأليف أو تأكيد سرد عن حادثة جرت في منطقته ويعترف بضلوعه فيها ليتقي شر التعذيب، وفي الحقيقة لا يمكن أن نسمي ذلك اعترافاً أكثر من كونه إقراراً لما يريده المحقق من المعتقل أن يعترف به.

أذكر أحد المعتقلين رجل مسن نحيل الجسد لا يتجاوز وزنه (45) كغ، لا يقوى لا على حمل السلاح بل حتى على حمل جسده نفسه، كان عمره (74) عاماً وقد تعرض لتعذيب شديد بحيث تكشفت عظامه من تحت الجلد بسبب الشبح، لقد قال لي أنه اعترف بكل شيء يريدونه قال لهم بأنه حمل السلاح واستخدمه في القتل، لم يصمد طويلاً بسبب جروحه العميقة فتوفي بعد أيام.

حتى "الموالون للنظام" لا ينجون

أحد المعتقلين وهو مهندس زراعي يعمل في "لجنة المصالحة" المعروفة في دمشق، تعرض لتعذيب شديد كاد يودي بحياته. وآخر شلّت يده أثناء التعذيب مع أنه من "الدفاع الوطني" وقد أبرز للمحقق هويته تلك ومع ذلك قام بتعذيبه.

كنت قريباً من الموت أيضاً ولكنني نجوت

كانت مياه الشرب ملوثة وكان مرض الجرب منتشراً بشكلٍ كبير في ذلك الفرع، كان هذا المرض يسبب تقيحات واسعة جداً، وكانت تؤدي إلى انتانات عميقة. عشرات المعتقلين ماتوا بسبب هذا التقيحات، وقد كانت طريقة علاجها من قبل المعتقلين أنفسهم غريبة جداً وقد كانت تنجح في بعض الأحيان، حيث كانوا يقومون "بقشط" تلك الالتهابات بواسطة قطعة حديدية حادّة، حيث كان كل أسبوع هنالك دفعة من المعتقلين يقومون بتقشيط جروحهم بهذا الشكل الفظيع حتى يتحول من التهابات إلى جروح عادية بعد سكب بعض "اليود" أوالمواد المعقمة المتوفرة بشكل قليل في الفرع. وقد تعرّضت لهذه العملية شخصياً قبل حوالي أسبوع من تحويلي إلى سجن عدرا المركزي.

كانت الحياة هشّة جداً في الفرع 215 و كان الموت حادثاً يومياً لدرجة أن التعامل مع بعض الجثث عند حملها كان اعتيادياً ومزرياً أحياناً، كان من السهل جداً أن يموت أي شخص بسبب الأوضاع السيئة. بقيت في ذلك الفرع (35) يوماً حُولّت بعدها إلى سجن عدرا المركزي وبقيت قرابة خمسة أشهر قبل أن يتمّ الإفراج عني مشمولاً بعفوٍ بعد "الانتخابات الرئاسية".

الاعتقال الرابع خلال الثورة، صدفةٌ "خيرٌ من ألف ميعاد"

بعد حوالي شهر من الإفراج عني من قبل الفرع 215، اعتقلت مجدداً لدى أمن الدولة وكان اعتقالي هذه المرة اعتقالاً كسائر اعتقالات الصدفة التي تحدث على الحواجز العسكرية في دمشق، فأثناء توجهي لزيارة أحد الأصدقاء، أخطأ سائق سيارة الأجرة في الطريق ودخل في اتجاه معاكس بالقرب من منطقة "الجسر الأبيض" في وسط دمشق، وكان التوقيت توقيت إفطار في شهر رمضان. وعند مرورنا أمام حاجز "الأربعين" أوقفنا مباشرة وقام أحد عناصر هذا الحاجز بسؤالنا عن سبب اتخاذنا طريقاً مخالفاً، ثم بعد ذلك أخذ بطاقاتنا الشخصية واعتقلنا على الفور، وبعدها نقلونا إلى فرع الخطيب "أمن الدولة" حيث فاجأني المحقق بعبارة: "إجيت على رجليك"، وبعد استفساري عن سبب قول هذه الجملة قال الضابط بأنني أقوم بعمليات "تمويل الإرهاب" وبأنني قمتُ بإعطاء مبلغ من النقود إلى أحد أساتذة جامعة دمشق، فأجبتُ أن صديقنا أخذ النقود من زوجتي "خولة دنيا" التي تعمل في منظمة "نجدة ناو" الإغاثية حيث التقوا عندي في العيادة. تمّ تحويلي بعد ذلك إلى القابون ومن ثم إلى عدرا لأُحاكم أمام محكمة قضايا الإرهاب وعند عرضي على قاضي التحقيق نفيت ذلك جملة وتفصيلاً فأمر القاضي بإخلاء سبيلي على أن أحاكم من خارج السجن. بالفعل تمّ إطلاق سراحي بعد نحو شهر ونصف. بعدها شعرت بالتكبيل وعدم القدرة على فعل أي شيء بسبب الضغوط الأمنية فقررت السفر خارج سوريا. توجهت إلى تركيا من خلال أحد المهربين ثمّ إلى ألمانيا التي بقيت فيها مدّة تسعة أشهر، ثم قررت أن أعود إلى تركيا مجدداً بسبب الحاجات السورية الكثيرة فيها، وحالياً أحاول تقديم ما يمكن تقديمه للسوريين في تركيا من خلال العمل في مركز للصحة النفسية حيث أعمل طبيباً نفسياً و مدرباً للدعم النفسي ـ الاجتماعي.

"صوت زقزقة العصفور لا يفارق حنجرتي"

اليوم وأنا أرى نفسي ناجياً من اعتقالات متنوعة أستذكر أناساً وحوادث حفرت في ذاكرتي عميقاً، وفي الحقيقة لا أستطيع التمييز في العنف الممارس على المعتقلين سواء أثناء الثورة الحالية أو في تلك الحقبة الماضية للانتفاضة الأولى، ففي الثمانينيات رأيت وسمعت حوادث فريدة أيضاً لكن شراسة العنف المطبق اليوم أكثر بشاعة وأوسع بحيث شملت أشكال التعذيب كل المعتقلين وشرائح واسعة الطيف من الناس بصرف النظر عن قربهم أو بعدهم من الثورة.
مثلاً أتذكر "فرحان نيربيه" المعتقل عام 1976 بسبب نشاطه مع الحزب الشيوعي في "يوم الأرض" والذي التقيته أثناء اعتقالي الأول، كنت كلما ألمس ركبتيه يصيح بأعلى صوته من شدة الألم، كان الجلد قد "كشط" تماماً وظهرت العضلات من تحته بسبب الضرب المتكرر عليها. أذكر أناساً كانوا يأكلون طعامهم بأكواعهم بدل أيديهم بسبب "الشبح" الذي يمنعهم لأشهر من استخدام اليدين.

أما أكثر الحوادث إيلاماً لديّ والتي لا أستطيع نسيانها فهي قصة ذلك الطفل الذي اضطر لبلع عصفور صغير وهو حيّ، كان من سكان محافظة اللاذقية اعتقل بعمر الاثنا عشر عاماً أثناء مداهمة منطقة "الصليبة" واحتجز مع (15) طفلاً آخرين لمدة عشر سنوات. قبل أن يفرجوا عنه بأشهر أحضروه إلى سجن عدرا المدني حيث التقيته هناك، كان شاباً في العشرينيات حينها حيويّ مفرط النشاط بحيث لا يكل من الحركة ولا يتعب من اللعب. استوقفتني حالته كثيراً وسألته إن كان لا يمل من حالته تلك فأجابني بأنه لا يستطيع أن يرتاح أبداً وأنه لم يعرف الهدوء يوماً، سألته عن السبب فأخبرني بقصته الحزينة: قال لي أنه وبعد اعتقاله صغيراً أخذوه إلى سجن "تدمر" وفي يوم كان الجو فيه بارداً أخرجونا إلى الباحة واقفين كعقوبة، حينها سقط عصفور صغير على الأرض كان يبدو عليه المرض بحيث لم يستطع تحريك جناحيه والطيران، نظرت إليه طويلاً بحنان الطفل

الصغير فانتبه إليّ السجّان وسألني" هل يعجبك هذا العصفور؟ سكتّ حينها وخشيت أن أرد له الجواب، فكرر عليّ السؤال مرة أخرى ولكن بلهجة عنيفة وصوت جهوري قوي. أجبته بتردد: "أجل إنه عصفور جميل" فقال لي: اذهب وأحضره إذن، عندما حملته كان "يزقزق" بين يدي الصغيرتين وعندها جال بخاطري أن هذا السجّان فيه شيء من الانسانية وأنه ربما مغلوب على أمره... لكنني لم أكمل ما يجول في ذهني حتى سمعته يطلب مني أن أبتلع هذا العصفور، لم أستوعب بداية وسألته كيف سأبتلعه وهو ما زال حيّاً. أجاب بقسوة : ابتلعه. لقد اضطررت إلى ابتلاعه حينها، لكن إلى الآن وقد مضى على هذه الحادثة سنوات طويلة لا زلت أسمع صوت "زقزقته" يخرج من حنجرتي خاصة في لحظات الهدوء. وأنا أكره أن أتذكر تلك الحادثة فتراني لا أحب الجلوس هادئاً.

نابض المعتقل طوق نجاته

بلغته الطبية يختم "جلال نوفل" قصة اعتقالاته المتكررة ومشاهداته فيها بالقول أن للإنسان مرونة نفسية ودرجة من المقاومة تختلف باختلاف الناس، وهي أشبه "بالنابض" بعض الناس يكون نابضها النفسي متين وصلب يقوى على التحمل وبعضها هشّ لا يتحمل الصدمات العنيفة. ولهؤلاء يجب أن تقدم كافة أنواع الدعم - سواء داخل المعتقل بحيث يساند أصحاب المناعة النفسية العالية زملاءهم أو خارجه من خلال تعزيز شبكة الدعم النفسي والاجتماعي لمحيط الناجي من الاعتقال. يتوجب اجراء قياس أولي لكل الذين يخرجون من السجن لتقييم مستوى الضرر الذي لحق بهم، وعمل تدخلات طبية مناسبة بحسب درجة الأذى النفسي والجسدي، على ألا يصاحب ذلك ممارسات ضاغطة بحيث يترك الناجي فترة ليتقبل وجوده الجديد في الحياة. إن قضية معتقلي الثورة السورية قضية أساسية وهي قضية انسانية بالدرجة الأولى والأخيرة، وتستحق منا جميعاً الاهتمام والعمل.

تم إجراء المقابلة في نيسان 2016

جلال نوفل

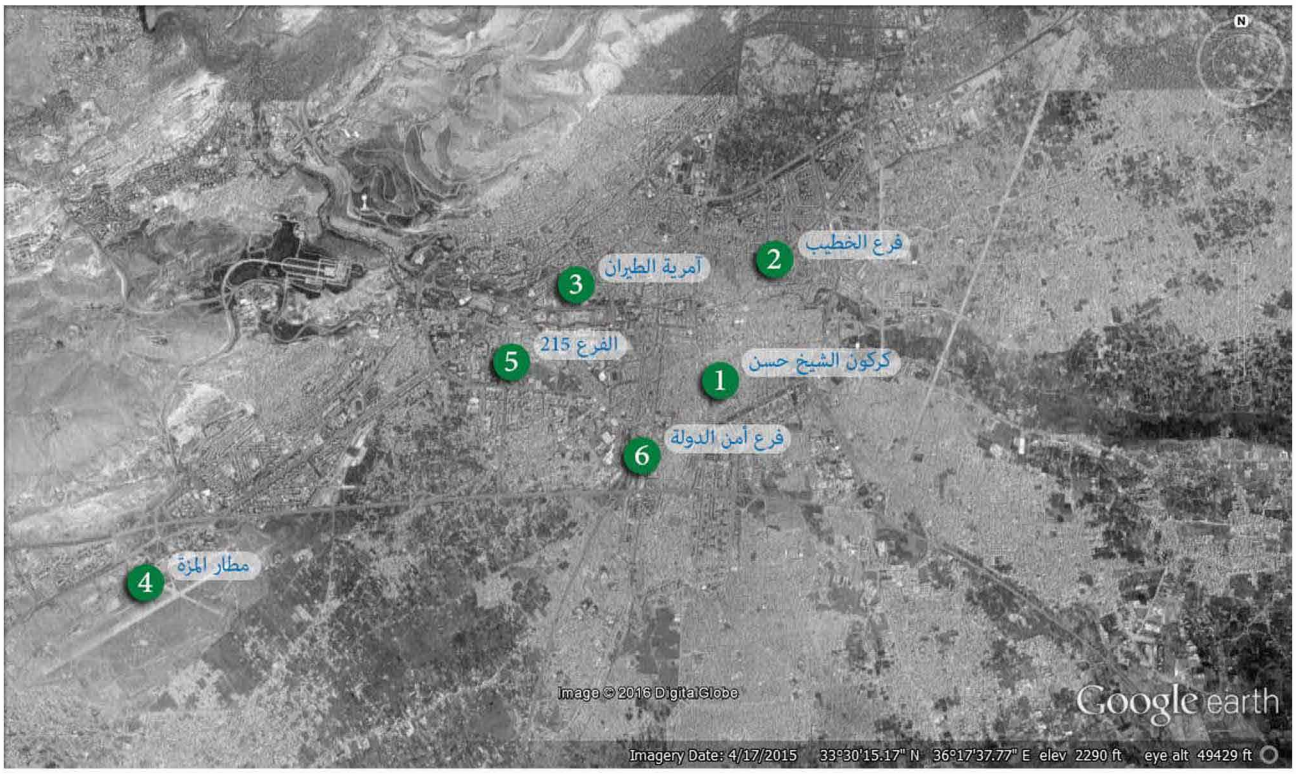

خارطة توضح الأماكن التي اعتقل فيها جلال نوفل